١

عند منتصف الليل استيقظت ، كما اعتادت أن تستيقظ فى هذا الوقت من كل ليلة بلا استعانة من منبِّه أو غيره ولكن بإيحاء من الرغبة التى تبيت عليها فتواظب على إيقاظها فى دقة وأمانة . وظلت لحظات على شك من استيقاظها فاختلطت عليها رؤى الأحلام وهمسات الإحساس ، حتى بادرها القلق الذى يلم بها قبل أن تفتح جفنيها من خشية أن يكون النوم خانها فهزت رأسها هزة خفيفة فتحت عينيها على ظلام الحجرة الدامس . لم يكن ثمة علامة تستدل بها على الوقت ، فالطريق تحت حجرتها لا ينام حتى مطلع الفجر ، والأصوات المتقطعة هى التى تترامى إليها أول الليل من سمَّار المقاهى وأصحاب الحوانيت هى التى تترامى عند منتصفه وإلى ما قبيل الفجر ، فلا دليل تطمئن إليه إلا إحساسها الباطن — كأنه عقرب ساعة واع — وما يشمل البيت من صمت ينم عن أن بعلها لم يطرق بابه بعد ولم تضرب طرف عصاه على درجات سلَّمه .

هى العادة التى توقظها فى هذه الساعة ، عادة قديمة صاحبت شبابها منذ مطلعه ولا تزال تستأثر بكهولتها ، تلقنتها فيما تلقنت من آداب الحياة الزوجية ، أن تستيقظ فى منتصف الليل لتنتظر بعلها حين عودته من سهرته فتقوم على خدمته حتى ينام . وجلست فى الفراش بلا تردد لتتغلب على إغراء النوم الدافىء وبَسْملَت ثم انزلقت من تحت الغطاء إلى أرض الحجرة ، ومضت تتلمس الطريق على هدى عمود السرير وضلفة الشباك حتى بلغت الباب ففتحته ، فانساب إلى الداخل شعاع خافت ينبعث من مصباح قائم على الكونصول فى الصالة ، فدلفت منه وحملته وعادت به إلى الحجرة وهو يعكس على السقف من فوهة زجاجته دائرة مهتزة من الضوء الشاحب تحف به حاشية من الظلال ، ثم وضعته على خوان قائم بإزاء الكنبة . وأضاء المصباح الحجرة فبدت برقعتها المربعة الواسعة وجدرانها العالية وسقفها بعمده الأفقية المتوازية ، إلا أنها لاحت كريمة الأثاث ببساطها الشيرازى وفراشها الكبير ذى العمد

شخصاً حاضراً : « ابعد عنا ، ليس هذا مقامك ، نحن قوم مسلمون موحدون » ثم تتلو الصمدية فى عجلة ولهوجة . وعندما طالت بها معاشرة الأرواح بتقدم الزمن تخففت من مخاوفها كثيراً واطمأنت لدرجة إلى دعاباتهم التى لم تجر عليها سوءاً قط فكانت إذا ترامى إليها حس طائف منهم قالت فى نبرات لا تخلو من دالة : « ألا تحترم عباد الرحمن ! . الله بيننا وبينك فاذهب عنا مكرما » . ولكنها لم تكن تعرف الطمأنينة الحقة حتى يعود الغائب ، أجل كان مجرد وجوده بالبيت — صاحياً أو نائما — كفيلا ببث السلام فى نفسها ، فتحت الأبواب أم أغلقت ، اشتعل المصباح أم خمد . وقد خطر لها مرة ، فى العام الأول من معاشرته ، أن تعلن نوعاً من الاعتراض المؤدب على سهره المتواصل فما كان منه إلا أن أمسك بأذنيها وقال لها بصوته الجهورى فى لهجة حازمة : « أنا رجل ، الآمر الناهى ، لا أقبل على سلوكى أية ملاحظة ، وما عليك إلا الطاعة ، فحاذرى أن تدفعينى إلى تأديبك » ، فتعلمت من هذا الدرس وغيره مما لحق به أنها تطيق كل شىء — حتى معاشرة العفاريت — إلا أن يحمّر لها عين الغضب ، فعليها الطاعة بلا قيد ولا شرط ، وقد أطاعت ، وتفانت فى الطاعة حتى كرهت أن تلومه على سهره ولو فى سرّها ، ووقر فى نفسها أن الرجولة الحقة والاستبداد والسهر إلى ما بعد منتصف الليل صفات متلازمة لجوهر واحد ، ثم انقلبت مع الأيام تباهى بما يصدر عنه سواء ما يسرها أو يحزنها ، وظلت على جميع الأحوال الزوجة المحبّة المطيعة المستسلمة ، ولم تأسف يوماً على ما ارتضت لنفسها من السلامة والتسليم ، وإنها لتستعيد ذكريات حياتها فى أى وقت تشاء فلا يطالعها إلا الخير والغبطة ، على حين تلوح لها المخاوف والأحزان كالأشباح الخاوية فلا تستحق إلا ابتسامة رثاء . ألم تعاشر هذا الزوج بعلاته ربع قرن من الزمان فجنت من معاشرته أبناء هم قرة عينيها وبيتاً مترعاً بالخير والبركة وحياة ناضجة سعيدة .. بلى ، أما مخالطة العفاريت فقد مرت كما تمر كل ليلة بسلام وما امتدت يد أحدهم إليها أو إلى أحد من أبنائها بسوء اللهم إلا ما هو بالمزاح والمداعبات أشبه ، فلا وجه للشكوى ، ولكن الحمد كل الحمد لله الذى بكلامه اطمأن قلبها وبرحمته استقامت حياتها .

حتى ساعة الانتظار هذه ، على ما تقطع عليها من لذيذ المنام وما تستأديها من خدمة كانت خليقة بأن تنتهى بزوال النهار ، أحبتها من أعماق قلبها ، فضلا عن أنها استحالت جزءاً لا يتجزأ من حياتها ، ومازجت الكثير من ذكرياتها ، فإنها كانت ولم تزل الرمز الحى لحدبها على بعلها وتفانيها فى إسعاده . وإشعاره ليلة بعد أخرى بهذا التفانى وذاك الحدب . لهذا امتلأت ارتياحا وهى واقفة فى المشربية ، وراحت تنقل بصرها خلال ثقوبها مرة إلى سبيل بين القصرين ومرة إلى منعطف الخرنفش وأخرى إلى بوابة حمام السلطان ورابعة إلى المآذن ، أو تسرحه بين البيوت المتكأكئة على جانبى الطريق فى غير تناسق كأنها طابور من الجند فى وقفة راحة تخفف فيها من قسوة النظام . وابتسمت للمنظر الذى تحبه . هذا الطريق الذى تنام الطرق والحوارى والأزقة ويبقى ساهرا حتى مطلع الفجر ، فكم سلى أرقها وآنس وحشتها وبدّد مخاوفها لا يغير الليل منه إلا أن يغشى ما يحيط به من أحياء بالصمت العميق فيهيىء لأصواته جوًّا تعلو فيه وتوضح كأنه الظلال التى تملأ أركان اللوحة فتضفى على الصورة عمقاً وجلاء ، لهذا ترن الضحكة فيه فكأنها تنطلق فى حجرتها ، ويسمع الكلام العادى فتميزه كلمة كلمة ، ويمتد السعال ويخشوشن فيترامى لها منه حتى خاتمته التى تشبه الأنين ، ويرتفع صوت النادل وهو ينادى : « تعميرة نادية » كهتاف المؤذن فتقول لنفسها فى سرور : « لله هؤلاء الناس .. حتى هذه الساعة يطلبون مزيداً من التعميرة » ، ثم تذكر بهم زوجها الغائب فتقول : « ترى أين يكون سيدي الآن ؟.. وماذا يفعل ؟.. فلتصحبه السلامة فى الحل والترحال » . أجل قيل لها مرة إن رجلا كالسيد أحمد عبد الجواد فى يساره وقوته وجماله — مع سهره المتواصل — لا يمكن أن تخلو حياته من نساء . يومها تسممت بالغيرة وركبها حزن شديد ، ولما لم تواتها شجاعتها على مشافهته بما قيل أفضت بحزنها إلى أمها ، فجعلت الأم تسكن من خاطرها بما وسعها من حلو الكلام ، ثم قالت لها : « لقد تزوجك بعد أن طلق زوجته الأولى ، وكان بوسعه أن يستردّها لو شاء ، أو أن يتزوج ثانية وثالثة ورابعة ، وقد كان أبوه مزواجاً ، فاحمدى ربنا على أنه أبقاك زوجة وحيدة » . ولو أن حديث أمها لم يُجْد مع حزنها وقت اشتداده إلا أنها مع

الأيام سلَّمت بما فيه من حق ووجاهة ، فليكن ما قيل لها حقًّا فلعله من صفات الرجولة كالسهر والاستبداد ، وشر على أى حال-خير من شرور كثيرة ، وليس من الهيِّن أن تسمح لوسواس بأن يفسد عليها حياتها الطيبة المليئة بالهناء والرغد ، ثم لعل ما قيل بعد هذا كله أن يكون وهماً أو كذباً . ووجدت أن موقفها من الغيرة ، شأنها حيال المتاعب التى تعترض سبيل حياتها ، لا يعدو التسليم بها كقضاء نافذ لا تملك حياله شيئا ، فلم تهتد إلى وسيلة فى مقاومتها إلا أن تنادى الصبر وتستعدى مناعتها الشخصية ، ملاذها الأوحد فى مغالبة ما تكره ، فانقلبت الغيرة وأسبابها ، كطباع زوجها الأخرى وكمعاشرة العفاريت ، مما تحتمل .

جعلت تنظر إلى الطريق وتنصت إلى السمَّار حتى ترامى إليها وقع سنابك جواد فعطفت رأسها صوب النحاسين فرأت « حنطوراً » يقترب وئيداً ومصباحاه يسطعان فى الظلام ، فتنهدت فى ارتياح وغمغمت « أخيراً .. » .

ها هو « حنطور » أحد أصدقائه يوصله بعد السهرة إلى باب البيت الكبير ثم يمضى كالعادة إلى الخرنفش حاملاً صاحبه ونفراً من الأصدقاء الذين يقطنون هذا الحى ، ووقف « الحنطور » أمام البيت ، وارتفع صوت زوجها وهو يقول فى نبرات ضاحكة :

ـــ أستودعكم الله ..

وكانت تنصت إلى صوت زوجها وهو يودع أصحابه بشغف ودهشة ، ولولا أنها تسمعه كل ليلة فى مثل هذه الساعة لأنكرته ، فما عهدت منه ـــ هى وأبناؤها ـــ إلا الحزم والوقار والتزمت ، فمن أين له بهذه النبرات الطروبة الضحوكة التى تسيل بشاشة ورقة ؟! . وكأن صاحب « الحنطور » أراد أن يمازحه فقال له :

ـــ أما سمعت ماذا قال الجواد لنفسه بعد نزولك من العربة ؟. قال إنه من المؤسف أن أوصل هذا الرجل كل ليلة إلى بيته وهو لا يستحق أن يركب إلا حماراً ..

وانفجر الرجال بالعربة ضاحكين فانتظر السيد حتى عادوا إلى السكون ثم قال يجيبه :

ـــ أما سمعت بماذا أجابته نفسه ؟. قالت إذا لم توصله أنت فسيركب البك صاحبنا ..

وضجَّ الرجال ضاحكين مرة أخرى . ثم قال صاحب العربة :

ـــ فلنؤجل الباقى إلى سهرة الغد ..

وتحركت العربة إلى شارع بين القصرين واتجه السيد نحو الباب فغادرت المرأة المشربية إلى الحجرة ، وتناولت المصباح ومضت إلى الصالة ، ومنها إلى الدهليز الخارجى حتى وقفت فى رأس السلم ، وترامت إليها صفقة الباب الخارجى وهو يغلق ، وانزلاق المزلاج ، وتخيلته وهو يقطع الفناء بقامته المديدة مستردًّا هيبته ووقاره ، خالعاً مزاحه الذى لولا استراق السمع لظنَّته من مستحيل المستحيلات ، ثم سمعت وقع طرف عصاه على درجات السلم فمدت يدها بالمصباح من فوق الدرابزين لتنير له سبيله .

٢

وانتهى الرجل إلى موقفها فراحت تتقدمه رافعة المصباح ، فتبعها وهو يتمتم :

ـــ مساء الخير يا أمينة .

فقالت بصوت خفيض ينم عن الأدب والخضوع :

ـــ مساء الخير يا سيدى .

وفى ثوان احتوتهما الحجرة ، فاتجهت أمينة إلى الخوان لتضع المصباح عليه ، فى حين علَّق السيد عصاه بحافة شباك السرير وخلع الطربوش ووضعه على الوسادة التى تتوسط الكنبة ، ثم اقتربت المرأة منه لتنزع عنه ملابسه ، وبدا فى وقفته طويل القامة عريض المنكبين ضخم الجسم ذا كرش كبيرة مكتنزة اشتملت عليها جميعاً جبَّة وقفطان فى أناقة وبحبحة دلَّتا على رفاهية ذوق وسخاء ، ولم يكن شعره الأسود المنبسط من مفرقه على صفحتى رأسه فى عناية بالغة ، وخاتمه ذو الفص الماسى الكبير ، وساعته الذهبية ، إلا لتؤكد رفاهة ذوقه وسخاءه . أما وجهه فمستطيل الهيئة مكتنز الأديم قوى